من أخلاق الرسول الكريم

صلى الله عليه وسلم

بقلم

عبد المحسن بن حمد العباد

المدرس بالجامعة الاسلامية

بالمدينة المنورة

الناشر

مكتبة الهدى النبوي الإسلامية

بورسعيد

ت: ٢٢٨١١٩

فهـــرس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدا كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، نحمده سبحانه ولا نحصي ثناء عليه ، أرسل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فارتضى له الإسلام دينا ، وجعل القرآن له خلقا ، امتنّ عليه بالصفات الفاضلة ثم أثنى عليه قائلا : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . ﴾ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الخلق والأمر وبيده الخير وهو على كل شيء قدير ، يعطى من يشاء بفضله ويمنع من يشاء بعدله ، قَسَم بين الناس أخلاقهم كما قَسَم بينهم أرزاقهم ، فجعل نصيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من الرزق كفافا ، ومن الأخلاق أكملها وأحسنها وأوفاها ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ . ﴾

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخليله وخيرته من خلقه ، بعثه الله إلى أهل المعمورة ليجدد به صلة السماء بالأرض ، فأنزل عليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ، ختم به الرسل ، وختم بكتابه الكتب وجعله معجزته الخالدة ، فهدى الناس به إلى الصراط المستقيم ، وحذرهم السبل التى تنتهى بهم إلى الجحيم ، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور ، ومن وحشة القلوب وتقلباتها في أنواع المعبودات إلى أنسها وثباتها على عبادة فاطر السموات والأرض ، قد أعظم الله عليه المنة وأتم به وعليه النعمة إذ بعثه ليتم مكارم الأخلاق .

اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اختارهم الله لصحبته ونشر سنته ، فجعلهم طليعة

الأخيار وصفوة الأبرار ، وعلى من سلك سبيلهم وسار على منوالهم مترسمًا خطاهم مقتفيًا آثارهم عامرَ القلب بحبهم رطبَ اللسان بذكرهم بالجميل اللائق بهم والثناء عليهم بما هم أهله والدعاء لهم بما علمنا الله في قوله ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ . ﴾

أما بعد : فموضوع هذه المحاضرة موضوع حبيب إلى النفوس المؤمنة هو « من أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم » ، وكيف لايكون حبيبًا إلى النفوس الحديثُ عن أخلاق نبيٍ بعثه الله رحمةً للعالمين ، نبيٍ لا نكون مؤمنين حتى يكون أحب إلينا من أنفسنا ووالدينا والناس أجمعين ، نبي لا يؤمن أحدنا حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به ﷺ ،نبي رَغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف مَنْ ذُكِرَ عنده فلم يُصَلِّ عليه ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين »

وهذا الموضوع العظيم الذى اخترته وآثرت الحديث فيه أعتذر مقدّماً عن تقصيرى في توفيته حقه وأعتقد أن توفيته حقه على الحقيقة نادر إن لم يكن متعذراً لكنه جهد مقل وكما يقولون :– ما لا يدرك كثيره لا يترك قليله .

وأسأل الله العظيم ربّ كل شيء ومليكَه أن يوفقنا جميعًا للتأدب بآداب هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وأن يحيِيَنا على دين الإسلام الذى ارتضاه لنا دينا حتى يتوفانا عليه إنه ولى ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلا به .

وقبل الشروع في الموضوع أرى أن أتحدث بين يديه إجمالاً عن شدة الحاجة إلى بعثته ﷺ ، واختيار الله له ، واعتراض المشركين على ذلك والامتنان على الناس ببعثته ، وضرب أمثلة للأمور والخصال التي حصلت بين يدى بعثته توطئة وتمهيدًا لها .

" شدة الحاجة إلى بعثته صلى الله عليه وسلم "

ماأكثرَ نِعَمَ اللهِ على عباده وماأحوجَهم دائمًا وأبدًا إلى شكره سبحانه على هذه النعم التى امتنّ عليهم بها في قوله : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاتُحْصُوهَا ﴾ وقوله ﴿ وَمَابِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ﴾ ، وأعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة أن بعث فيها رسوله الكريم محمدا ﷺ ليرشد إلى كل نافع في الحاضر والمستقبل ويحذر من كل ضار في العاجل والآجل ، أرسله على حين فترة من الرسل واندراس من الكتب ، في وقت انتشرت فيه الضلالةُ وعمَّت فيه الجهالة وبلغت البشرية منتهى الانحطاط في العقائد والعادات والأخلاق ، فأخرجهم به من هوة الضلالة ورفعهم إلى صرح العلم والهداية ، فأزاح به عن النفوس تعلقها بغير خالقها وفاطرها سبحانه وتعالى ، ووجّهَها إليه بقلبها وقالبها حتى لايكون فيها مَحلٌ لغيره سبحانه ، بل تكون معمورة بحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه ، تستسلم لأوامره وترعوى عن زواجره ونواهيه .

" شيء من أمراض القلوب التى انتشرت قبيل بعثته ﷺ وكيف عالجها صلوات الله وسلامه عليه ؟

خلق الله الإنسان مركّبًا من شيئين بدن وروح ، وجعل لكل منهما مايغذيه وينميه ، وأرشد إلى طرق العلاج التى يعالج بها كل منهما عندما

يطرأ عليه مرض أو سقم ، فقد أغدق نعمه على عباده وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ، أما الروح فقد استحكمت أمراضها قبل بعثته ﷺ حتى كانت من قبيل الأموات ، فأحياها الله بما بعث به نبيه ﷺ من الهدى والنور ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ، وأرشد سبحانه إلى أن شفاء أمراضها وجلاء أسقامها إنما هو بما أنزل الله على محمد ﷺ فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ بَلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ . ﴾

نعم لقد بعث الله نبيه ﷺ في مجتمع انتشرت فيه الأمراض القلبية على اختلافها وتنوعها ، وأعظم هذه الأمراض على الإطلاق تعلُّقُ القلوب بغير الله وصرفُ خالص حقه سبحانه إلى غيره من مخلوقاته ، فعالج ﷺ هذا المرض الخطير والداء العضال باستئصاله وتطهير القلوب من أدرانه أولاً ، ثم شغلها وعمارتها بحب الله وخوفه ورجائه وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له ، لكونه سبحانه المتفرد بالخلق والإيجاد فهو بحق المستحق لأن يُعبَدَ وحدَهُ لا يُعْبَدُ مَعَهُ غيرُه كائناً ما كان ، وقد لَقِيَ ﷺ من المشركين في هذا السبيل ألواناً مختلفة من الإيذاء فصبر حتى ظفر بنصر الله وتأييده ، وكانت العاقبة له ﷺ وأنصاره ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ولقى أيضا منهم ألواناً من المعارضة والتَّعَنُّتِ أوضحها الله في كتابه العزيز في سورة الحجر والإسراء وغيرهما من سور القرآن ، ومن ذلك ما ذكره الله عنهم في سورة صٓ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا

لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا . ﴾ وقد حملهم على هذه المقالة الكِبْرُ والحسد ، ومثل هذه المقالة التى حكاها الله عن كفار قريش ما ذكره الله سبحانه في سورة القمر عن قوم صالح بقوله ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ وأبرز الطرق التى عالج بها ﷺ ذلك الداء الذى هو أعظم الأدواء على الإطلاق إلزامُ الكفار بأن يُفردوا الله بالعبادة لما كانوا معترفين بانفراده سبحانه بالربوبية ، وأكتفى بالتمثيل بآيات أوضحت تلك الطريقة غاية الإيضاح وذلك قوله سبحانه ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وبما ذكره الله سبحانه في سورة الحج من التصوير العجيب والتمثيل البليغ لعجز المعبودات التى أشركوها مع الله حيث قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَاقَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ﴾

ومن الأمراض التي عالجها ﷺ بحكمته الظلمُ والجَوْرُ وازدراءُ المساكينِ والتفاخرُ بالأحساب والأنساب فَنشَرَ فيهم العدلَ وعَمَّهم الاطمئنان والاستقرار وصار مقياس الفضل بينهم تقوى الله بدلا من اعتبار ذلك بالحسب والنسب ، وقد أعلنها ﷺ صريحة في حَجَّة الوداع في أعظم جمع شهده ﷺ حيث قال : « أَلَا لَافَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ خَيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ولما بلغه ﷺ شأن المخزومية التي سرقت أَمَرَ بقطع يدها فراجعه أسامة بن زيد فأنكر ﷺ عليه ذلك وقال ﷺ المقالة التي برهن بها عن مدى تحقيق العدالة « وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » وقد أشار ﷺ في جوابه لأسامة بن زيد إلى أن العدول عن العدل سبب هلاك الأمم المتقدمة حيث قال : « إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ »

ولما قسم ﷺ غنائم "حنينٍ" وأكثر العطاء للمؤلَّفَةِ قلوبُهم وَجَدَ الأنصار رضي الله عنهم في أنفسهم شيئا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فأتى إليهم ﷺ وقال : " أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَكُنتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ بِي وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي "، وقد ذكّرهم الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه النعمة وأنها من أعظم النعم عليهم فقال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَاتَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذه بعض الأمراض التى انتشرت قبل بعثته ﷺ ، مَنَّ الله سبحانه وتعالى على البشرية بإرسال رسوله الكريم محمد ﷺ لينقلها من ذل عبادة المخلوق إلى عز طاعة الخالق جل وعلا ، من الظلم والجور وسفك الدماء إلى ساحة العدل والأمن والاطمئنان ، من الفرقة والاختلاف إلى الاجتماع والائتلاف ، من التعاون على الإثم والعدوان إلى التعاون على البر والتقوى ، من الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، من الغش والخيانة إلى النصح والأمانة ، من الجزع والهلع والاعتراض على قضاء الله إلى الصبر والثبات والرضى بما قدره الله وقضاه وفي الجملة : من كل ضارٍ عاجلاً وآجلاً إلى كل نافع في الحال والمآل ، وقد أرشد الله سبحانه إلى شكره على ذلك بعبادته وحده لا شريك له في قوله سبحانه ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ . ﴾

اختيار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم

يقول الله سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذه الآية

الكريمة تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بالخلق يقول للشيء الذى أراده كن فيكون ، وتدل أيضًا على أن تلك المخلوقات التى أوجد ها من العدم لم يُسَوِّ بينها بل اختار منها ماشاء وله الحكمة البالغة فخصه بالتفضيل ، فقد اختار من أرضه مكةَ حرسها الله فجعلها مَقَرَّ بيتِهِ الحرام مَنْ دخله كان آمنا وصرف قلوب الناس إليه ، وأوجب على المستطيع منهم حَجَّهُ ، وحرَّمَ صيدَهُ وقَطْعَ شَجَرِه ، وضاعف الأعمال الصالحة فيه وحذر من الخروج عن طاعته سبحانه وأشار إلى عقوبة إرادة السوء في الحرم بقوله سبحانه ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، ويلي ذلك مهاجَرُ رسوله ﷺ هذه المدينة المباركة حرم رسول الله ﷺ قطع شجرها واصطيادَ صيدها ، وأخبر بمضاعفة الصلاة في مسجده بقوله « صَلَاةٌ في مَسْجِدي هٰذا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِواهُ إِلَّا الْمَسْجِد الحَرَام . » ، واختار سبحانه من الشهور رمضانَ ففضله على سائر الشهور ، واختار منه ليلةَ القدر ففضلها على سائر الليالى ، واختار من الأيام يومَ عرفةَ فجعله أفضل الأيام ، واختار من أيام الأسبوع يومَ الجمعة فجعله أفضلها ، واختار من الملائكة جبريلَ وإسرافيلَ وميكائيلَ فوكَّلَهُم بأسباب الحياة ، واختار من البشر أنبياءَهُ ورسلَه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ففضلهم على غيرهم ، وجعل أفضلهم أولي العزم منهم ، واختار الخليلَيْن إبراهيمَ ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما فجعلهما أفضلهم ، وجعل محمدا ﷺ أفضل الخليلين ، وأمته خير الأمم ، فهو ﷺ إمام المتقين وسيد المرسلين وخليل رب العالمين وخاتم النبيين ، أقام الله به الحجة على الثقلين الجن

والإنس ، وأولُ قبر ينشق عند النفخ في الصور قبرُهُ ، ولايدخل الجنة أحدٌ قبله ، واختصه سبحانه بالمقام المحمود الذى يحمده فيه الأولون والآخرون ، وهو الشفاعة العظمى في فصل القضاء التى يتخلى عنها أولو العزم من الرسل ، كل واحد يقول:نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى ، حتى تنتهى إليه ﷺ فيقول:أنا لها ثم يشفع فَيُشَفِّعُهُ الله ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ، وقد أشار سبحانه في كتابه العزيز إلى اختياره من يشاء بقوله سبحانه ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ، وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ،وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصطفاني مِنْ بَني هاشِمٍ » فهو ﷺ بنص هذا الحديث الشريف خلاصة خلاصة خلاصة باعتبار شرف النسب كما كان خلاصة خلاصة باعتبار الفضل وعلو المنزلة عند الله .

«اعتراض المشركين على اختيار الله له صلى الله عليه وسلم»

ولما بعث الله رسوله ﷺ إلى الناس كافة ليهديهم به إلى الصراط المستقيم قابله المشركون بما يستطيعونه من الأذى والمناوأة وتأليب الناس عليه وتحذيرهم منه ، فوصفوه بأشنع الأوصاف فقالوا إنه كاهن وقالوا مجنون ، هذا وهم أعلم الناس بماضيه المشرق الوضّاء ، ولكن الذى حملهم على ذلك الكِبْرُ والحسد ، فقد أخبر الله عنهم في كتابه العزيز أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من

إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورًا واستكبارًا في الأرض ومكر السيء ولايحيق المكر السيء إلا بأهله ، وقال سبحانه وتعالى مخبرًا عنهم : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ إلى أن قال مشيرًا إلى حسدهم له ﷺ ﴿ أَأُنْزِلَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا . ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ثم قال مخبرًا عن اعتراضهم على الله في اختياره لهذا النبي الكريم ﷺ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . ﴾ فأنكر عليهم ذلك وبيّن أن الأمر أمره والخلق خلقه والفضل فضله يؤتيه من يشاء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته فقال سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ونظير هذا قوله سبحانه ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ – إلى أن قال – قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ وقال : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ . ﴾

وقد روى الحاكم بسند على شرط الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ وَلَكِنْ نُكَذِّبُ مَا جِئْتَ بِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ

يَجْحَدُونَ . ﴾ وروى أن الأخنس بن شريق دخل على أبي جهل فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أ صادق هو أم كاذب فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرُك يسمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل: وَيْحَكَ واللّهِ إنَّ مُحَمَّداً لَصَادِقٌ وَماكَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بنو قُصَيٍّ بالسِّقَايَةِ والحِجَابَةِ والنُّبُوَّةِ فماذا يكون لسائر قريش؟، وقال: تَنازَعْنَا نحن وبنو عبد منافٍ الشرفَ: أطعَمُوا فأطعَمْنا،وحملوا فحملْنا،وأعطوا فأعطينا،حتى إذا تجاثينا على الرُّكَبِ وكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهانٍ قالوا: منا نبي ينزل عليه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه؟والله لا نؤمن به ولا نصدقه .

وهكذا يبلغ الكِبْرُ والحسد بهؤلاء القوم الذين دعاهم رسول الله ﷺ إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، حملهم ذلك على تجاهل الحقيقة وإبداء خلاف المستقر في القلوب ، يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم متبعين في ذلك إمامهم في الضلال والحسد إبليس اللعين حيث فسق عن أمر ربه له بالسجود لآدم كِبْراً وَحَسَداً استناداً منه إلى أنه أفضل منه على زعمه لكونه خُلِقَ من نار وآدم عليه الصلاة والسلام خلق من طين .

"امتنان اللّه سبحانه على الثقلين برسالته صلى الله عليه وسلم"

من رحمة اللّه سبحانه بعباده أن أرسل فيهم رسله يبشرون وينذرون كلما ذهب نبي خَلَفَهُ نبي حتى ختمهم بنبي الرحمة محمد ﷺ . وفي ذلك يقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾

ولقد اختار منهم سيدهم وإمامهم فجعله خاتم النبيين ، واختصه بخصائص ومزايا لم يشركه فيها أحد منهم ، كما اختص أمته بخصائص ليست لغيرها من الأمم السالفة ، ومن تلك المزايا التى امتاز بها على غيره من المرسلين صلواتُ ٱللَّهِ وسلامُه عليه وعليهم أجمعين،أَنَّ بعثه إلى الأسود والأحمر بل إلى الجنّ والإنس جميعًا كما قال الله سبحانه عن الجن الّذين استمعوا لقراءته ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ يَاقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّمْ يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ ٱلْأَنبياءِ قَبلى فذكر من بينها : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً » ، وفي ذلك يقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . ﴾ ويقول : ﴿ قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . وقد أوضح ذلك ﷺ في الحديث الذى رواه مسلم في صحيحه حيث قال: « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَايَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَانَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ .. » قال سعيد بن جبير رحمه الله : مصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قال الله سبحانه ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ ، ولاشك أن أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض هى إرسال هذا النبي الكريم الذى أكمل به الدين وجعله حُجَّة على الناس أجمعين وقد أخبر الله في كتابه العزيز عن إبراهيم وابنه إسماعيل أنهما دعوا اللّه

لأهل الحرم وهما يبنيان البيت بأدعية،من بينها ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ﴾ وقد أجاب الله دعاءهما فبعث في الأميين وفي غيرهم محمدا ﷺ ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وتلك النعمة العظمى والمنة الجسيمة نَوَّهَ الله بها في معرض الثناء على نفسه سبحانه في آيات كثيرة،منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . ﴾ ومنها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . ﴾ومنها قوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ . ﴾ ومنها قوله سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وإنما كان إرساله ﷺ إلى الناس أعظم منة امتنَّ بها على عباده،لأن في ذلك تخليص مَنْ وَفَّقَهُ وهداه منهم من العذاب السَّرْمَدِيّ بسبب الإيمان بالله ورسوله ﷺ والابتعاد عن الشرك الذى لا يغفره الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

" التمهيد لبعثته
صلى الله عليه وسلم"

ومن حكمة الله وفضله أن هيأ لنبيه ﷺ قبل أن يبعثه جميع أسباب الشرف والرفعة وعلو المنزلة ووفَّر فيه جميع الخصال التى تؤهله للقيام بأعباء الرسالة العظمى التى اصطفاهُ واختاره لها ﷺ ، وفيما يلى أذكر على سبيل المثال بعض تلك الأسباب والخصال ، وأبين كيف كانت توطئةً وتقدمةً لبعثته ﷺ :

أولاً : أن الله سبحانه جعله عريق النَّسَب كريمَ المنبت اصطفاه من أشرف قبائل العرب، قبيلة قريش التى شهد لها غيرها بالسيادة والقيادة وهذه سنة الله في رسله كما جاء في سؤال "هِرَقْل" ملك الروم لأبي سُفْيَانَ" عن رسول الله ﷺ حيث قال-يعني رسول الله ﷺ-: كيف نسبه فيكم ؟ قال "أبَوُ سُفيَانَ": هو فينا ذو نسب ، ثم قال "هِرَقْل" عند ذلك : وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها ، وإنما كانت هذه سنة الله في رسله لِيَسُدَّ على أعدائهم باب القدح فيهم والتنقيص لهم فلا يجد أعداؤهم سبيلا إلى إلصاق العيوب بهم .

ثانياً : أنه ﷺ نشأ فقيراً يتيمًا في كفالة جَدِّه عبد المطلب ثم عمه أبي طالب وذلك من أسباب التواضع والتَّحَلِّي بالصفات الحميدة والبُعْد عن الصفات الذميمة كالكِبْرِ والظلم وغير ذلك ، وقد ذكر الله ذلك مُنَوِّهاً بتفضُّله على نبيه ﷺ بإيوائه وإغنائه وهدايته حيث قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ثم أرشده إلى شكر هذه النعمة بأن يعطف على اليتامى والمساكين

ويتحدث بنعمة الله عليه : قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . ﴾ وهذه تربية إلهية لنبي الرحمة ﷺ ذكرها الله في كتابه العزيز تنبيهًا لعباده المؤمنين بأن يحملوا أنفسهم على تلك الصفات الحميدة وغيرها شكرًا لله سبحانه على توفيقه لهم بالهداية بعد الضلالة ، والغنى بعد الفقر وغير ذلك من نِعَمِه عليهم ، والمعنى : لاتقهر اليتيم فقد كنت يتيمًا تكره أن تُقهر ولاتنهر الفقير فقد كنت فقيراً تكره أن تُنهر، ولاشك أن تذكير الإنسان بنعمة الله عليه من أقوى الأسباب في الإقدام على الخير والإحجام عن الشر لمن وفقه الله ..

ثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى أنشأه نشأة صالحة وأنبته نباتاً حسناً متحلّياً بكل خلق كريم بعيداً عن كل وصف ذميم شهد له بذلك موالوه ومعادوه ، ولكن من لم يشأ الله هدايته تعامى عن هذا كله وأظهر خلاف ما يبطنه كِبْراً وحسداً ، وفي توفيق الله لنبيه ﷺ للاتصاف بالصفات النبيلة والسلامة من الأخلاق الرذيلة قَطَعٌ لألسنة أعدائه وإسكاتٌ لهم عن أن يُعَيِّرُوه بأدنى عيب أو يُصَفُّوه بشيء من النقص ، ولهذا لما سأل "هِرَقْلُ" ملك الروم "أبا سُفيانَ" عن رسول الله ﷺ : هل يَغْدِرُ ؟ قال : لا ، ولم يستطع مع شدة عداوته لرسول الله ﷺ في ذلك الوقت أن يقول أكثر من قوله بعد نفي الغدر عنه « وَنَحْنُ مِنْهُ في مُدَّةٍ لانَدْرِى ماهو فاعل فيها » قال : « ولم تُمَكِّنِّي كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة » وقد تحرّز من الكذب خوفاً من ملك الروم ، فأعداؤه ﷺ لايستطيعون وصفه حقيقة بوصف معيب ، أما الكذب والافتراء عليه ﷺ فقد قالوا عنه إنه ساحر وقالوا عنه شاعر وقالوا عنه

كاهن وغير ذلك ، وقد صانه الله سبحانه من ذلك الذى ألصقوه به ومن كل عيب وأنكر على المشركين افتراءهم وكذبهم عليه وأخبر بأنه من ذلك براء فقال سبحانه : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا . ﴾

رابعاً : أنه ﷺ نشأ أُمّيّاً بين أميين لايقرأ ولايكتب ثم جاء من الله بهذا القرآن الذى قال الله فيه ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . ﴾ وفي نشأته ﷺ على هذه الصفة قطع للطريق التى ينفذ منها الكفار إلى تكذيب الرسول ﷺ فيما جاء به عن الله وأنه من أساطير الأولين قرأها أو كتبها لو كان كذلك ، وقد أوضح الله ذلك بقوله ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ ثم أشار إلى حصول الريبة من أعدائه لو كان قارئاً كاتباً بقوله : ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ ، وتلك الطريق التى قطعت عليهم بجعله ﷺ أُمّيّاً لايقرأ ولايكتب سلكوها كذبًا وافتراءً على رسول الله ﷺ مع علمهم التام ببعده ﷺ عن ذلك ، فقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا إنما يعلمه بشر ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر دينه فيجيبهم بأن لسان الذى يلحدون إليه أعجمي وهذا الذى جاءهم به لسان عربي مبين . ولهذانجد الله سبحانه وتعالى

عند إنكاره على قومه ﷺ ما يقومون به من المعارضة والمناوأة له ﷺ يَلْفِتُ أنظارهم إلى ماضيه المشرق الوضّاء ويذكّرهم بعلمهم ومعرفتهم التّامة لحركاته وسكناته ومُدْخله ومُخْرجه فيقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ ويقول ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم إنه أمر نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه ليس له إلا التبليغ عن الله وأنه لو شاء الله ما حصلت منه ﷺ تلاوة ولا حصل لهم علم بذلك فقال :﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ ثم ذكرهم بماضيه قبل إنزال القرآن عليه وما اتصف به من جميل الصفات وأنه قد بقى فيهم قبل أن يبعثه الله أربعين سنة ملازمًا لأسباب الرفعة بعيدًا عن أسباب الضّعة والهوان فقال : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ . ﴾ ثم أنكر عليهم وصفهم له بالكذب والافتراء مع أنهم أعلم الناس به وأن ذلك مخالف للفِطَر والعقول السليمة فقال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ثم أخبر بأنه لاأحد أشد ظلمًا وأكبر جريمة من اثنين المفتري على الله والمكذّب بما جاء عن الله فقال تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

خامساً : ومن الأمور التى حصلت بين يدى بعثته ﷺ توطئة وتمهيدًا لها الرؤيا الصالحة في النوم فكان ﷺ لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح كما ثبت في صحيح البخاري وغيره .

سادساً : أنه ﷺ رعىٰ الغنم بمكة ، وفي ذلك تمهيد وتهيئة

لإرساله إلى الناس كافة ليرشدهم إلى ماينفعهم في دنياهم وأخراهم ويحذرهم مما يعود عليهم بالأضرار العاجلة والآجلة ، وإنما كان رعيه الغنمَ بمكة توطئة وتقدمة لبعثته ﷺ لأن هذا العمل مدعاة إلى التحلى بجميل الصفات كالتواضع والسكينة والوقار مع ما فيه من اشتغال الراعى بالرعية وبذله الأسباب التى تؤدى إلى سلامتها وقوتها فيعتنى بها ويرتاد لها المراعي الخصبة ويبتعد بها عن الأراضى المجدبة ويحميها من الذئاب ويسلك بها الطرق السهلة ويحيد بها عن السبل ذات الشدة والوعورة ، وهذه سنة الله في رسله كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ ولله الحكمة البالغة في ذلك فمزاولة مثل هذا العمل فيه ترويض للنفس وتهيئة لها للقيام بأعباء الرسالة ، فهو بلاشك درس عملى لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم يكسبهم مرونة وخبرة لينتقلوا من تربية الحيوان إلى تربية بنى الإنسان .

" أخلاَقُهُ صلى الله عليه وسلم "

تعريف الخُلُق :

الخلق بضم اللام وسكونها الدين والطبع والسجية قاله ابن الأثير في "غريب الحديث" وفي الاصطلاح يطلق إطلاقين: أحدهما أَعَمُّ من الثانى فيطلق على الصفة التى تقوم بالنفس على سبيل الرسوخ ويستحق الموصوف بها المدح أو الذم، ويطلق على التمسك بأحكام الشرع وآدابه فعلاً وتركاً، ومن الأول قوله ﷺ لأَشَجّ عبد القيس: "إِنَّ فِيكَ لَخَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللّٰهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ. قال: يا رسول الله أَ خُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا أَمْ جُبِلْتُ عَلَيْهِمَا : ؟ قال: بَلْ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا ، قال: الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَبَلَنِي

على خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللّهُ" ، ومن الثاني قوله ﷺ: "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ" وقول عائشة رضي الله عنها في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ". هذا تعريف الخُلق في اللغة والاصطلاح ننتقل بعده إلى الحديث عن أخلاقه الفاضلة وسجاياه الحميدة في جميع مراحل حياته ﷺ ، فقد كان ﷺ أحسن الناس خلقا اجتمع فيه من أوصاف المدح والثناء ماتفرق في غيره ، قد صانه الله سبحانه وحفظه من أدنى وصف يعاب صاحبه ، كل ذلك حصل له من ربه فضلا ومنة قطعا لألسنة أعدائه الذين يتربصون به ويقفون في طريق دعوته مؤذين له محذرين منه ، أحب شيء إليهم تحصيل شيء يعيبونه به وأنى لهم ذلك .

فقد نشأ ﷺ من أول أمره إلى آخر لحظة من لحظاته متحليا بكل خلق كريم مبتعدا عن كل وصف ذميم ، فهو أعلم الناس وأنصحهم وأفصحهم لسانا وأقواهم بيانا وأكثرهم حياء يضرب به المثل في الأمانة والصدق والعفاف ، أدبه الله فأحسن تأديبه ، فكان أرجح الناس عقلا ، وأكثرهم أدبا ، وأوفرهم حلما ، وأكملهم قوة وشجاعة ، وأصدقهم حديثا ، وأوسعهم رحمة وشفقة ، وأكرمهم نفسا ، وأعلاهم منزلة وبالجملة كل خلق محمود يليق بالإنسان فله ﷺ منه القسط الأكبر والحظ الأوفر ، وكل وصف مذموم فهو أسلم الناس منه وأبعدهم عنه شهد له بذلك العدو والصديق .

وفيما يلي أورد بعض الشهادات التي شهد له بها الموالون والمعادون الدالة دلالة بينة على تمسكه بالأخلاق الحسنة قبل أن يبعثه الله تعالى وذلك معلوم من الدين بالضرورة :

١- شهادة خديجة رضي الله عنها :

لما أوحى الله إلى نبيه ﷺ في غار حراء لأول مرة ورجع إلى خديجة أخبرها الخبر وقال: لقد خشيت على نفسى فقالت له رضي الله عنها: كلَّا والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتَكسب المعدوم وتَقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . رواه البخاري.

٢ - شهادة كفار قريش عند بنائهم الكعبة :

ولما قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثة محمد ﷺ تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه واتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم الباب فكان أول داخل رسول الله ﷺ ففرحوا جميعا وقالوا: جاء الأمين جاء محمد ، وقد كانوا يلقبونه بلقب الأمين لما يعلمونه من أمانته ﷺ ..

٣ - شهادة كفار قريش بصدقه صلى الله عليه وسلم :

ثبت في صحيح البخاري أنه ﷺ لما نزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد إلى الصفا فجعل ينادى: يابنى فهر يابنى عدي – لبطون قريش – حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو ؟ فجاءأبو لهب وقريش فقال: أ رأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أ كنتم مصدقيَّ ؟ قالوا: نعم ماجربنا عليك إلا صدقا قال : « فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبّا لك أ لهذا جمعتنا ..

٤ - شهادة أبي جهل بصدقه صلى الله عليه وسلم :

تقدم الحديث الذى رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لانكذبك لكن نكذب ماجئت به فأنزل الله ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَايُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . ﴾

ولما قال له الأخنس بن شريق: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أ صادق هو أم كاذب ؟ فقال: ويحك والله إن محمدا صادق وماكذب محمد قط الخ ..

٥ - شهادة أبي سفيان بين يدى هرقل ملك الروم بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفائه :

فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا ذهبوا إلى الشام لأجل التجارة في المدة التى كان رسول الله ﷺ مادًّا فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه بإيليا فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت: أنا أقربهم نسبا ، فقال : أدنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبا لكذبت عليه ، ثم كان أول ماسألني عنه أنه

قال: كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذونسب ، قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله ؟ قلت : لا قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت: بل ضعفاؤهم ، قال : أ يزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لاندرى ماهو فاعل فيها ، قال : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه ، قال: بماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئا واتركوا مايقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذونسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله قط فذكرت أن لا قلت فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان في آبائه من ملك فذكرت أن لا قلت فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال فذكرت أن لا قلت لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك أ يزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أ يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لاتغدر ، وسألتك بماذا يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدميّ هاتين ،وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به إليه مع دحية بن خليفة الكلبي فقرأه ، قال أبو سفيان : فلما قال ماقال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات فأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر ، فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام

ففي هذه القصة آيات بينات ودلالات واضحات على نبوته ﷺ وأنه ﷺ صادق فيما جاء به ، ومحل الشاهد من القصة شهادة أبي سفيان بن حرب وهو من أشد أعدائه في ذلك الوقت على اتصاف الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله بالصدق وأنهم لايتهمونه بالكذب وبالوفاء وأنه لايغدر .

٦ - شهادة السائب المخزومي له
صلى الله عليه وسلم بحسن
المعاملة والرفق قبل النبوة

روى أبو داود وغيره أن السائب المخزومي كان شريك النبي ﷺ قبل البعثة فجاء يوم الفتح فقال:مرحباً بأخى وشريكى لاتدارى ولاتمارى وفي لفظ أنه قال للنبي ﷺ : كنت شريكى في الجاهلية فكنت خير شريك لاتدارينى ولاتمارينى وفي لفظ كنت شريكى ونعم الشريك كنت لاتدارى ولاتمارى .

٧ - شهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه
بصدقه صلى الله عليه وسلم :

روى أحمد وأصحاب السنن عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل فلما تبيّنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فسمعته يقول : « أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصَلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

٨ - شهادة مكرز بن حفص بن الأحنف له
صلى الله عليه وسلم بالوفاء
في جميع مراحل حياته :

كان رسول الله ﷺ عام الحديبية قد أبرم صلحا بينه وبين قريش على أن يرجع ويعتمر من العام المقبل ، ومن الشروط التى اشترطتها قريش

على رسول الله ﷺ أن يدخل مكة بسلاح الراكب فقط (السيوف مغمدة) فلما قدم ﷺ في عمرة القضاء استعد بالخيل والسلاح لا ليدخل بها الحرم وإنما لتكون في متناول يده لو نكثت قريش ، وعندما قرب ﷺ من الحرم بعث بها إلى يأجج وكان خبر ذلك السلاح قد بلغ قريشا فبعثت مكرز بن حفص بن الأحنف في نفر من قريش إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت لهم أن لاتدخل إلا بسلاح المسافر فقال ﷺ إني لاأدخل عليهم بالسلاح وقد بعثنا به إلى يأجج فقال مكرز: بهذا عرفناك بالبر والوفاء .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم في القرآن

تفضل الله تعالى على خليله محمد ﷺ بتوفيقه للاتصاف بمكارم الأخلاق وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ثم أثنى عليه ونوّه بذكر مايتحلى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز أقتصر على إيراد بعضها من ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة ووصف خلقه ﷺ بأنه عظيم وأكد ذلك بثلاثة أشياء بالإقسام عليه بالقلم ومايسطرون وتصديره بإن وإدخال اللام على الخبر ، وكلها من أدوات تأكيد الكلام ، وذلك الخلق العظيم الذى كان عليه ﷺ ورد تفسيره عن السلف الصالح بعبارات متقاربة ، ففسره ابن عباس رضي الله عنه بأنه الدين العظيم وهو دين الإسلام وبهذا التفسير فسره أيضا مجاهد والسدي والربيع بن أنس

والضحاك وغيرهم ، وفسره الحسن بأنه آداب القرآن وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن ومعنى ذلك أن امتثال ماأمره الله به واجتناب مانهاه عنه في القرآن صار له خلقا وسجية ، وقد أشارت عائشة رضي الله عنها إلى مايوضح هذا المعنى في حديث آخر متفق على صحته وهو أنها قالت :كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه:« سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفرلى » يتأول القرآن أى كان يدعو بهذا الدعاء امتثالا لما أمره الله به في سورة النصر في قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ ..

وقد نوّه سبحانه بماجبل نبيه ﷺ عليه من الرحمة والرأفة بالمؤمنين والحرص على ماينفعهم في دنياهم وأخراهم والتألم من كل مايشق عليهم بقوله سبحانه ممتنا على المؤمنين بإرساله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ . وأشار سبحانه إلى مااتصف به ﷺ من اللطف والرفق بأمته بقوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . ﴾

أما مااتصف به ﷺ من النصح والأمانة والقيام بأداء الرسالة على الوجه الذى أراده الله فقد ذكره سبحانه بقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ

مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ وَمَايَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ويقول تعالى يعني محمدا ﷺ : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ وفيها قراءتان بالظاء والمراد به المتهم ، وبالضاد والمراد به البخيل ، وكلا هذين منفى عنه ﷺ فليس هو بمتهم بكتمان ماأرسله الله به ، وليس ببخيل بماأنزل الله عليه بل يبذله لكل أحد .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم في سنته وأقوال صحابته رضي الله عنهم

كان رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله بالرسالة العظمى في الذروة العليا من الأخلاق الحسنة صدقا وأمانة وكرما وحلما وشجاعة وعفة وقناعة وغير ذلك من الصفات التى يحظى بالإجلال والإكبار من حصل على واحدة منها فضلا عمن جمعت له وتوفرت فيه ..

ولما بعثه الله سبحانه بالنور والهدى إلى الثقلين الجن والإنس زاده الله قوة في هذه الخصال الحميدة إلى قوته حتى بلغ الحد الأعلى الذى يمكن أن يصل إليه إنسان ، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » وقد نوه الله سبحانه بتفضله وامتنانه على نبيه وخليله محمد ﷺ في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَايُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَايَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَاكُنْتَ تَدْرِي مَاالْكِتَابُ وَلَاالْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ

ﭐلَّذي لَهُ مَا في السَّمَٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ أَلَا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ . ﴾ وقوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَاتَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَاتَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزًا ﴾

وقد اختار سبحانه لنبيه ﷺ أصحابا هم خير هذه الأمة المحمدية التى هى خير الأمم ، وقفوا حياتهم في سبيل تبليغ دعوته وحفظ سنته تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ورثوا عن نبيهم ﷺ ماجاء به من الحق وورّثوه لمن جاء بعدهم حتى هيأ الله له رجالا قاموا بتدوينه ، منهم بل على رأسهم الإمامان الجليلان البخاري ومسلم وغيرهما من المحدّثين ، فقد أفنوا أعمارهم جزاهم الله خير الجزاء في تقييد تلك الدرر الثمينة التى ورثوها عن نبيهم محمد ﷺ بواسطة السلاسل الذهبية المتصلة بأمثال مالك ونافع وشعبة وأحمد وعليّ بن المديني وغيرهم من خيار هذه الأمة ، وهذه الدرر الثمينة التى توارثوها – ونعم الإرث هى – تشمل أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وبيان خلقه وأخلاقه ، ولهذا يعرّف المحدّثون الحديث بأنه ماأضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلْقى أو خُلُقى .

ولقد اعتنى هؤلاء الورثة الكرام بتدوين ماجاءهم عن نبيهم ﷺ على سبيل العموم وبما يتعلق بأخلاقه ومزاياه على سبيل الخصوص ، فمنهم من أفرد ذلك بالتأليف ، ومنهم من عقد له أبوابا خاصة ضمن المؤلفات العامة أورد فيها مايتصل بخوفه ﷺ ورجائه وخشيته لربه وجوده وإيثاره وحيائه ووفائه وصدقه وأمانته وإخلاصه وشكره وصبره وحلمه وكثرة احتماله

ورفقه بأمته وحرصه على التيسير عليها وعفوه وشجاعته وتواضعه وعدله وزهده وقناعته وصلته لرحمه وكثرة تبسمه وعفته وغيرته إلى غير ذلك من آحاد حسن خلقه ﷺ .

تفصيل القول في أخلاقه صلى الله عليه وسلم

وهذه الأخلاق التى أشرت إلى بعض آحادها يحتاج تفصيلها وبسط القول فيها إلى عدة محاضرات أما المحاضرة الواحدة فلاتكفى إلا للإشارة إلى بعض تلك الأخلاق والمزايا الحميدة التى أوتيها ﷺ .

١ - جوده وكرمه صلى الله عليه وسلم :

وقد بلغ ﷺ في خُلُق الجود والكرم مبلغا لم يبلغه غيره ، وصل فيه إلى الغاية التى ينتهى عندها الكمال الإنساني ، ومن توفيق الله له ﷺ أن جعل جوده يتضاعف في الأزمنة الفاضلة ، يقول ابن عباس رضي الله عنه في الحديث الصحيح : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود مايكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فَلَرسولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » ، جاد بنفسه في سبيل الله فكسرت رباعيته وشج وجهه وسال الدم منه ﷺ ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، وجاد بجاهه ومن أمثلة ذلك شفاعته ﷺ لمغيث زوج بريرة رضي الله عنهما لما عتقت واختارت فراقه أشار عليها أن تبقى في عصمته رحمة منه ﷺ بزوجها مغيث ، وأخص الأمثلة في ذلك ماأخبر به ﷺ من شفاعته في أهل الموقف التى يتخلى عنها أولو العزم من الرسل فتنتهى إليه فيقول:أنا لها ﷺ ، وقد صح

عنه ﷺ أنه قال: "لكل نبي دعوة مستجابة قد دعا بها فاستجيب له فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيمة"، وجاد ﷺ بما أعطاه الله من المال ، فما سئل ﷺ شيئا من الدنيا قط فقال لا ، ولقد جاءت إليه ﷺ امرأة ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدى لأكسوكها فأخذها ﷺ محتاجا إليها ولبسها فقال له رجل من الصحابة: أكسنيها يارسول الله ، فقال ﷺ: نعم فدخل منزله فطواها وبعث بها إليه فقال له بعض الصحابة : ما أحسنت! لبسها رسول الله ﷺ محتاجا إليها ثم سألته وعلمت أنه لايرد سائلا فقال : إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني. قال سهل بن سعد رضي الله عنه : فكانت كفنه ، هذا مثل من أمثال اتصافه ﷺ بهذا الخلق الكريم ، فهل بعد هذا كرم يصدر من مخلوق ؟ . وهل وراء هذا الإيثار إيثار ؟ ! ولقد وصف الله الأنصار في كتابه العزيز بصفة الإيثار في قوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ وهذه الصفة الكريمة التى اتصفوا بها أسوتهم فيها وفي غيرها من مكارم الأخلاق سيد ولد آدم ﷺ يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ولما رجع من حنين التف حوله الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ وقال: أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا » .

وجوده ﷺ في العطاء لبعض الناس إنما هو لتأليفهم على الإسلام ، فكثيرا ما كان يخص حديثي العهد بالإسلام بوافر العطاء دون من تمكن الإيمان في نفوسهم ففي غزوة حنين أعطى أكابر قريش المئات من الإبل

ومنهم صفوان بن أمية فقد روى مسلم في صحيحه أنه قال : "لقد أعطاني رسول الله ﷺ ماأعطاني وإنه لأبغض الناس إلَيَّ فمابرح يعطيني حتى إنه من أحب الناس إلَيَّ"، وروى أيضا عن أنس رضي الله عنه قال : "ماسئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: ياقوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لايخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم مايريد إلا الدنيا فمايلبث إلا يسيرا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وماعليها"، أعطى رسول الله ﷺ ذلك الرجل تلك الغنم الكثيرة التى لكثرتها ملأت مابين جبلين ، وماذاكانت نتيجة هذا الإعطاء من رسول الله ﷺ ؟ لقد كانت حصول الغرض الذى من أجله أعطاه وهى أنه أصبح داعية لرسول الله ﷺ لقد كان بدافع من نفسه رسولا لرسول الله ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم كرم رسول الله ﷺ وأنه يعطى عطاء من لايخشى الفقر ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يبذل المال في سبيل نصرة الإسلام والدعوة إليه والترغيب فيه ينفق مال الله الذى آتاه في سبيل الله حتى توفاه الله ودرعه مرهونة في دَيْنٍ عليه ﷺ .

٢ – تواضعه صلى الله عليه وسلم وقربه من الناس

ولم يحصل لأحد من البشر ماحصل لرسول الله ﷺ من توفر صفات الكمال وبلوغ الحد الأعلى والغاية القصوى التى يمكن أن يبلغها إنسان فكان ﷺ مضرب المثل في الكمال الإنساني والسمو الخلقي.

قبل البعثة وبعدها وقد خصه الله بخصائص وميّزه بميزات امتاز بها على البشر في الدنيا والآخرة فجعله أفضل المرسلين الذين هم خير البشر وجعله خاتمهم وسيدهم وإمامهم وأوّلهم خروجا من القبر وأولهم تقدما للشفاعة وأولهم مشفّعا .

وقال ﷺ متحدثا بنعمة الله عليه ومبيّنا للأمة منزلته عند الله ليعتقدوا ذلك ولينزلوه المنزلة اللائقة به ﷺ من الإجلال والتعظيم والمحبة والمتابعة قال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيمة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع ". رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومع هذه الخصائص والميزات التى سما بها إلى منزلة لايساويه فيها غيره من أُولِي العزم من الرسل فضلا عمن سواهم كان ﷺ أشد الناس تواضعا وأقربهم إلى الضعيف والمسكين وأبعدهم عن الكِبْر والترفع

ولما بيّن ﷺ لأمته بعض ماخصه الله به بقوله : أنا سيد ولد آدم أضاف إلى ذلك مايبرىء ساحته من الفخر – وحاشاه من كل نقص – فقال : ولافخر أخرجه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وإنما أخبر ﷺ بمنزلته عند الله لأنه لاسبيل للأمة إلى معرفة ذلك إلا بواسطته والتلقي عنه ﷺ إذ لانبي بعده يخبر عن عظم منزلته عند الله كما أخبر هو أمته بفضائل الأنبياء قبله صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم أجمعين .

ولما خير ﷺ بين أن يكون عبدا رسولا أو نبيا ملكا اختار مقام العبودية

والرسالة على مقام النبوة والملك″ أخرجه الإمام أحمد في المسند وروى البيهقي عن أنس قال : ″دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشّعا″، وروى ابن إسحاق في السيرة أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعا حين رأى ماأكرمه الله به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل″. قال ابن كثير : وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش العرمرم بخلاف مااعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أُمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود أي رُكّع – يقولون حِطّة فدخلوا يزحفون على أستاهم وهم يقولون حنطة في شعرة . وروى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال : كانت الأَمَة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت ، وروى مسلم في صحيحه عن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت : يارسول الله إن لي إليك حاجة ، فقال : ياأم فلان انظري أى السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها ، وفي صحيح البخاري عن الأسود قال : سألت عائشة ماكان النبي ﷺ يصنع في أهله ؟ قالت : كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة . وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدي إلى ذراع أو كراع لقبلت ، وكان ﷺ إذا مر بالصبيان سلّم عليهم . روى مسلم في صحيحه عن شعبة عن سيار قال : كنت أمشي مع ثابت البناني فمر بصبيان فسلم عليهم وحدث ثابت أنه كان يمشي مع أنس فمر بصبيان فسلم عليهم وحدث أنس أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ

فمر بصبيان فسلم عليهم ، وكان ﷺ يخالط أصحابه ويداعب الصبي الصغير يقول أنس رضي الله عنه فيما رواه عنه البخاري في الصحيح : إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : ياأبا عمير مافعل النغير ؟ وفي رواية أخرى عنه قال : كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقا وكان لى أخ يقال له أبو عمير ، قال أحسبه فطيما وكان إذا جاء قال : ياأبا عمير مافعل النغير ، نغير كان يلعب به .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : أف ، ولا لم صنعت ؟ ولا أ صنعت ؟ وكان ﷺ يركب الدواب ويردف بعض أصحابه وراءه عليها . وكان ﷺ يرشد أمته إلى التحلى بصفة التواضع ويرغّبهم في التخلّق بها ومما قاله ﷺ في ذلك : وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله . رواه مسلم ، وهو ﷺ سيّد المتواضعين وأسوتهم وقد رفعه الله إلى أعلى الدرجات رفع قدره وأعلى منزلته وخلّد ذكره .

ومع هذا التواضع والخلق العظيم الذى تفضل الله به على عبده ورسوله وخليله محمد ﷺ كان أصحابه رضي الله عنهم لايملؤون أعينهم بالنظر إليه ﷺ إجلالا واحتراما له ﷺ .

يقول عمروبن العاص رضي الله عنه في حديث له أخرجه مسلم في صحيحه : "وما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ ولاأجل في عيني منه وماكنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ماأطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه".

٣ - رحمته صلى الله عليه وسلم
بأمته ورفقه بها وشفقته عليها

وبفضل الله ورحمته عليه ﷺ كان رحيما رفيقا كما قال الله تعالى مخاطبا إياه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فلم يحصل لأحد من البشر ماحصل لرسول الله ﷺ من الاتصاف بالرحمة والرفق لايقاربه في ذلك أحد ولايدانيه .
فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا بال في طائفة المسجد فثار إليه الناس ليقعوا فيه فقال لهم رسول الله ﷺ : دعوه وأهريقوا على بوله ذَنوبا من ماء أو سَجلا من ماء فإنما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تبعثوا معسرين أخرجه البخاري وغيره .

وفي صحيح البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : أتى رجل النبي ﷺ فقال : إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا قال: فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ . قال فقال: يا أيها الناس إن فيكم منفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الكبير والمريض وذا الحاجة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ماشاء .

وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ماصليت وراء إمام قط أخف صلاة ولاأتم من النبي ﷺ وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتن أمه . وعن أبي قتادة قال : خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها ، وقال ﷺ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .

وهذه الأحاديث كلها في صحيح البخاري ، ولما قام ﷺ بأصحابه ليلا يصلي بهم في رمضان خشي أن يفرض عليهم فترك الصلاة بهم . ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى الثانية فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما أصبح قال: رأيت الذى صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفترض عليكم وذلك في رمضان .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن كان النبي ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، ولما واصل ﷺ في صيامه وعلم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك واصلوا معه فنهاهم عن الوصال إشفاقا عليهم قالوا فإنك تواصل . قال:إني لست كهيئتكم.ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم فقال له رجل من المسلمين : إنك تواصل يارسول الله قال : وأيكم مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوما ثم يوما ثم رأوا الهلال فقال : "لو تأخر لزدتكم" كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا . فإنه ﷺ نهاهم عن الوصال رحمة بهم وشفقة

عليهم فلما راجعوه في ذلك رغبة منهم في موافقته واصل بهم وكان آخر الشهر يوما ثم يوما ثم رأوا الهلال وقال : لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا ، وهذا منه ﷺ إرشاد عملي وتأديب نبوي للصحابة الكرام رضي الله عنهم ليوقفهم على ضعفهم وأن الوصال يشق عليهم فيبتعدوا عنه من تلقاء أنفسهم ، وهذا التأديب النبوي يشبهه مالو رأى والد ولده يحاول العبث بالنار فيعمل على تجنيبه ضررها بأن يأخذ بيده ويضع إصبعه برفق على طرف جمرة منها ليدرك مدى ضررها فيكون حذرا منها ويبتعد عن الوقوع فيها لأن والده قد أوقفه على مدى ضررها .

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه لما شمّت وهو في الصلاة رجلا عطس ووجد من الصحابة إنكارا عليه قال : فلما صلى رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولابعده أحسن تعليما منه فوالله ماكهرني ولاضربني ولاشتمني قال: "إن الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن". وكان ﷺ إذا بلغه عن أحد من أصحابه ما يحتاج إلى تنبيه عليه قال في خطبته : مابال قوم يفعلون كذا ومابال رجال من أمتي يقولون كذا وما أشبه ذلك وذلك ليعدل عنه من صدر منه وليحذر الوقوع فيه من لم يباشره .

٤ – عفوه وحلمه صلى الله عليه وسلم :

وكما كان ﷺ غاية في الرحمة والشفقة فهو غاية في العفو والحلم والصفح والصبر والتحمل ، وسيرته العطرة حافلة بالوقائع الدالة على ذلك

ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه . قال : غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبَل "نجد" فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلّق سيفه بغصن من أغصانها قال وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر قال : فقال رسول الله ﷺ إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتا في يده فقال لى : من يمنعك مني؟، قال : قلت الله .. ثم قال في الثانية : من يمنعك منى . قال : قلت الله . فشام السيف فها هو ذا جالس لم يعرض له رسول الله ﷺ وهذا لفظ مسلم . وعند البخاري ولم يعاقبه وجلس . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم قالت عائشة ففهمتها فقلت : وعليكم السام واللعنة . قالت : فقال رسول الله ﷺ : مهلا ياعائشة إن الله يحب الرفق في الأمركله فقلت يارسول الله ألم تسمع ماقالوا ؟ قال رسول الله ﷺ قد قلت : وعليكم ..

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : ماخُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وماانتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ، وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة قال أنس: فنظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم

قال: يامحمد مر لي من مال الله الذى عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمرله بعطاء.

٥ - نصحه صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى دين الله

لما بعث الله رسوله محمدا ﷺ بالدين القويم قام بأعباء هذه المهمة على الوجه الأكمل وصبر على ما اعترضه في هذا السبيل من أذى .
أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ : يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟فقال : لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ومارَدُّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال : فناداني ملك الجبال وسلّم عليَّ ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئا .

إن هذا لهو الخلق العظيم يناله ﷺ مثل هذا الأذى وتحف به المصائب فينطلق على وجهه مهموما ثم تعرض عليه ملائكة الله القضاء على أعدائه بأن يطبقوا عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة - فلا يستجيب لهذا العرض ويجيب بالإجابة التى تبرهن على تمام نصحه

ومحبته لأن يعبد الله وحده فيقول : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئا .

وقد ترك ﷺ الناس على محجة بيضاء واضحة كفيلة لمن سلكها بعز الدنيا وسعادة الآخرة جاء ذلك نتيجة لاتصاف الرسول ﷺ بكمال النصح وقوة البيان ونهاية الأمانة فما من شيء يقرب إلى الله إلا دل عليه أمته ورغّبها فيه كما حذرها مما يخالف ذلك فلم يقصّر ﷺ في إبلاغه شرع الله ولم يقصّر في بيانه عند الإبلاغ . أخرج مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قيل له : قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة؟ قال فقال : أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجى باليمين أو أن نستنجى بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجى برجيع أو عظم .

وقد أعلن ﷺ قيامه بواجب التبليغ في أعظم جمع لقيه وذلك في حجة الوداع واستشهد الناسَ على أنفسهم فشهدوا الشهادة الحق بإبلاغه رسالة ربه وتأديته ماأمر به على أكمل وجه ونصحه في ذلك وذلك في حديث جابر الطويل في صفة حج النبي ﷺ الذى أخرجه مسلم في صحيحه وفيه قوله ﷺ وهو يخطب الناس يوم عرفة : "وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال: بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات .

ولم يدع ﷺ وسيلة فيها إيضاح وإفهام للناس وحفز للهمم إلى

القيام بطاعة الله والبعد عن معصيته إلا سلكها في سبيل دعوته إلى الله وتحذير أمته من النكوب عن الشرع القويم الذى جاء به ﷺ فكان يضرب الأمثلة التى تجعل الشيء المبين في صورة المحسوس المشاهد ، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن مثلى ومثل مابعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم وصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ماجئت به ومثل من عصاني وكذب ماجئت به من الحق ، وفي صحيحه أيضا عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يَذُبُّهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدى واتفق البخاري ومسلم على إخراج هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه

وكان ﷺ إذا سئل عن شيء وكانت الأهمية لغير المسؤول عنه لفت نظر السائل برفقه وحكمته ﷺ إلى ذلك الأهم . ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال : متى الساعة ؟ قال : وماذا أعددت لها ؟ قال : لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ فقال ﷺ : أنت مع من أحببت . إلى غير ذلك من الوسائل التى اتبعها ﷺ في هدايته وإرشاده .

٦ – قوته وشجاعته صلى الله عليه وسلم :

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير

كما قال ﷺ في الحديث الذى أخرجه مسلم في صحيحه . وقد جمع الله أنواع القوة في عبده ورسوله محمد ﷺ جمع له إلى القوة الإيمانية الكاملة القوة البدنية فاستعمل هذه القوة في عبادة الله وطاعته والسعى الحثيث إلى كل مايقربه إليه وهو الأسوة والقدوة لأمته في كل خير . روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطّر رجلاه . قالت عائشة : يارسول الله أ تصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ فقال : ياعائشة أفلاأحب أكون عبدا شكورا ؟

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود مايكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة".

وفي الصحيحين أيضا عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول : لم تراعوا لم تراعوا وهو على فرس لأبي طلحة عُرىٍ ماعليه سرجٌ، في عنقه سيف فقال : لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر .

وكان ﷺ يتقدم أصحابه في الجهاد في سبيل الله وقد شُجَّ وجهه وكسرت رباعيته ﷺ يوم أحد . وفي غزوة حنين ثبت رسول الله ﷺ حين انهزم الكثير ممن معه ففي الصحيحين عن البراء بن عازب

رضي الله عنه أن رجلا قال له : ياأبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبا سفيان بن الحارث آخذ في لجام بغلته البيضاء وهو يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره بعد سياق هذا الحديث : قلت وهذا في غاية مايكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولاتصلح لفر ولا كر ولا هرب وهو مع هذا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ﷺ دائما إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلما منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان .

حقه صلى الله عليه وسلم على أمته وحق أمته عليه :

ولعل من المناسب أن أختم هذه المحاضرة المشتملة على نماذج من أخلاقه ﷺ بالإشارة إلى مجمل حقه على أمته وحق أمته عليه ﷺ فأقول :

من حقه على أمته – وقيامهم بهذا الحق عنوان سعادتهم – أن يشهدوا بأنه رسول الله حقا إلى جميع الثقلين الجن والإنس وأن شريعته باقية إلى قيام الساعة وأنها عامة لكل أحد فلايسع أحدا الخروج عنها .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "والذى نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار".. وإن شريعته صالحة لكل زمان ومكان وأنه لا سعادة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة إلا لمن سلك سبيله وسار على نهجه وأنه هو الأسوة والقدوة لأمته وأنه الصادق المصدوق في أخباره غائبها وماضيها ومستقبلها،وأن تكون القلوب عامرة بحبه محبة أعظم من محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين ، ومن محبته ﷺ محبة شريعته وتعظيمها وتحكيمها والتحاكم إليها كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وأن تكون العبادة لله خالصة وعلى وفق الخطة التى رسمها رسوله ﷺ فلا يعبد الله إلا بما شرع كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"، وماأحسن قول أبي عثمان النيسابوري إذ يقول: مَنْ أَمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

وقد جمع هذه الأمور في عبارة وجيزة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حيث قال في بيان المراد بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ قال: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب مانهى عنه وزجر وأن لايعبد الله إلا بما شرع .

ومن حقه على أمته ﷺ أن تكون الألسنة رطبة بالثناء عليه بكل مايليق به مع الحذر من الغلو الذى لايرضاه الله ولا رسوله ﷺ ،

وبالثناء على سنته وإيضاح محاسنها وبيان ضرورة الناس إلى التمسك بها وأن تكون الألسنة رطبة بالصلاة والسلام عليه ﷺ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعهم بإحسان ، والبخيل حق البخيل مَنْ ذكر عنده النبي ﷺ فلم يصلِّ عليه ، وأرغم الله أنف من ذكر عنده النبي ﷺ فلم يصلِّ عليه ، وأبخل ممن يبخل بالدرهم والدينار من يبخل بالصلاة والسلام على النبي ﷺ عند ذكره صلوات الله وسلامه الأتمان الأكملان عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما حق الأمة عليه فهو إبلاغهم رسالة ربهم وإرشادهم إلى مافيه سعادتهم في الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

روى البخاري في صحيحه عن ابن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال : مِن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم . انتهى . وقد مَنَّ الله على المؤمنين بإرسال رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وقام رسول الله ﷺ بإبلاغ الرسالة على أكمل الأحوال وأتمها وأنزل الله تعالى عليه في أواخر حياته في حجة الوداع : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع :"وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت . فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات." رواه مسلم ، فالذى من الله وهو الرسالة والذى على الرسول ﷺ

وهو البلاغ كل منهما قد حصل على التمام والكمال أما الذى على الأمة وهو التسليم،فالسعيد مَنْ وُفِّق للقيام بذلك قولا وفعلا واعتقادا،والشقىّ الطريد المخذول مَنْ كان بخلاف ذلك .

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقنا جميعا للتأدب بآداب هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأن يَمُنَّ علينا بالتوفيق لاقتفاء آثاره والسير على نهجه وأن يميتنا على سنته ويحشرنا في زمرته ويجعلنا من الفائزين بشفاعته إنه ولى ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلا به . ربنا تقبل منا إنك السميع العليم ، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .